يغرق شعب فلسطين لا أن يروي ظمأه . وكانت النتيجة الفعلية كما وصفها الشيخ فريح ابو مدين ، شيخ عشائر بئر السبع ، عندما قال في شهادته التي أدلى بها أمام لجنة شو التي جاءت الى فلسطين لتحقق في أسباب ثورة البراق (١٩٢٩) انه « لم يبق شيء للعرب في هذه البلاد سوى الموت او الرحيل »(٧).

وقامت ثورات ١٩٢٩ و ١٩٣٣ و ١٩٣٥ و ١٩٣٦ — ١٩٣٩ لتعلن للعالم زيف اسطورة النهر الذهبي ، حتى بدأ العالم يدرك ان للحلم الصهيوني ضحايا وانه لا يمكن اقتطاع رطل اللحم بدون دماء . واعترفت لجنة بيل (١٩٣٧) بهذه الحقيقة عندما عزت الهدوء النسبي الذي ساد فلسطين قبل ثورة البراق الى « التقهقر العظيم الذي أصاب مقدرات الوطن القومي »(٨). ووجدت أن هناك علاقة عكسية بين الوضع الاقتصادي والحالة السياسية في فلسطين(٩) ؟

بعد أن بدأ الكفاح الفلسطيني زعزعة أسس الدبلوماسية الصهيونية بكشف زيف شرعيتها المستمدة من تحالفها مع الاستعمار وقدرتها على اخفاء ضحيتها ، حرم الشعب الفلسطيني من ثمرة كفاحه وتضحياته التي قدمها في العشرينات والثلاثينات ، وأصيبت قضيته بنكسة تاريخية عندما عاد فاختفى في الاربعينات وخفت صوته فنسيت حقوقه ومزق وطنه وقامت دولة المستوطنين الغزاة على أرضه . ويعود هذا التحول لصالح الحركة الصهيونية الى أربعة عوامل خدمت كدعامات ثانوية مساندة للدبلوماسية الصهيونية . وهذه العوامل هي :

١ — كانت ثورة التحرر العالمية ما زالت في بداية مسيرتها . وبالتالي لم تكن قد افلحت بعد في تغيير البيئة الدولية لصالح الشعوب المقهورة . وكان الرأي العام العالمي ما زال رأيا أوروبيا ، وكانت المنظمة الدولية التي افرزها ذلك العصر رابطة للشعوب الراضية . اي أن المجتمع الدولي كان ما زال مشوها لا يمثل الاسرة البشرية تمثيلا صادقا . لذلك كان توقيت طرح القضية الفلسطينية على المنبر الدولي في اواخر الاربعينات عاملا ساعد الدبلوماسية الصهيونية على التغلب على العقبات التي وضعها الكفاح الفلسطيني في طريقها .

٢ — كذلك ساعد اكتشاف مدى البربرية النازية على اثارة موجة من التعاطف مع اليهود استغلتها الحركة الصهيونية في طمس الحقائق التي ابرزها الكفاح الفلسطيني عن حقيقة النزاع الفلسطيني — الصهيوني . ولم يعد العالم الغربي قادرا على تحكيم عقله وانساق وراء عاطفته التي شوهها شعوره الشديد بالاثم تجاه مأساة يهود اوروبا . وتظهر هذه الحقيقة من خلال تجربة اللجنة الانجلو — اميركية التي أرسلت الى فلسطين عام ١٩٤٦ لدراسة مشكلتها ، لكنها انجرفت امام التيار العاطفي الذي اجتاح العالم الغربي آنذاك فحكمت على فلسطين وقررت مصيرها حال مشاهدتها لمعسكرات الاعتقال النازية وقبل ان ترى اللجنة فلسطين . وروى أحد اعضاء اللجنة شعوره فقال أن الشعب اليهودي قاسى بما فيه الكفاية ، والان يجب ان يعطى ما يريد ، واذا كان ذلك فلسطين فليكن كذلك !(١٠) من الواضح انه لا يوجد متسع للشعب الفلسطيني وحقوقه في مثل هذا التفكير .

٣ — اتضح عقب الحرب العالمية الثانية ان نهاية الاستعمار المباشر اقتربت ، فشعرت الدول الاستعمارية بحاجة الى من يحرس مصالحها بعد رحيلها . فحاولت أن تقيم في المستعمرات انظمة ودولا تعمل من موقع التبعية لها . وكانت الدولة الصهيونية جزءا من هذه الخطة .